أن يستنفروا جميع الفعلة من البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء من جميع بلاد الأندلس، التي تحت نظر الموحدين ـ أعانهم الله ـ ويستعجلوا بالوصول إلى الحضرة لامتثال الأمر الكريم، فاحتفل النظر واحتفل البشر لذلك من الأجناد والقواد والكتاب وأهل الحساب لتقييد الأشغال، والإنفاق على الأعمال، وبالتعجيل في ذلك والكمال.

وتقدم السيد الأجل أبو سعيد على ما أمر به من موضعه بغرناطة إليه، ومشى من اشبيلية العريف أحمد بن باسه[1] بجميع البنائين ومن يشاكلهم، ومن يعاونهم من الرجال ويماثلهم، ونزلوا فيه وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع الجمع عليه والاتفاق من نواحيه، بسيف البحر مما يلاصقه ويليه، [18] وزادت آمال أهل الأندلس إلى ما تقدم إليهم من الأمل، وتحققوا اليمن والسعد والفتح في بنيان هذا الجبل، وكان من اشتغال السيد الأعلى أبي يعقوب رضي الله عنه باشبيلية في إزعاج الفعلة والرجال للبناء المذكور

وأحكم البناؤون فيه بناء من القصور المشيدة والديار[2]، واخترعوا في أسسها طيقاناً والحنايا لتعتدل بها الأرض مبنية بالحجر المنحور والجيار، مما هو عجيب في الآثار، وكما قيل: «الملوك تبني على قدرها من الأقدار»[3] وبما

(1) يعتبر ابن باسه من أبرز الخبراء الذين اعتمدهم الموحدون في مشاريعهم المعمارية الكبرى، وقد استفادوا من خبرته بالإضافة إلى ما هنا عند اتخاذ القرار بجعل قرطبة مقر الصدور الأوامر، وعند صدور الأمر ببناء القصور الملكية بإشبيلية، وقد كان شيخ العرفاء، وهو الذي قام بتشييد جامع إشبيلية الأعظم (الخبر الذا)، وما تزال هذه الأسرة معروفة إلى الآن بالمغرب وإنها تنتسب فيما سمعت أسرة باسة المعروفة بالقنادة في ناحية تادلة ويوجد منها إلى الآن بمدينة فاس بعض البنائين المهرة من يعتمدهم القصر الملكي في صيانته. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 66-322-330.

انظر: P. J. Renoud. Notes critiques d histoire des sciences chez les musulmans-1. Les Ibn Baso p 1 HESPERIS Tome XXIV Année 1937.

(2) تنص بعض المصادر على أنه بالإضافة إلى القصر الخاص الذي شيد للخليفة عبد المؤمن شيدت قصور أخرى في جوار قصر الخليفة للسادة بنيه. وإنه كذلك أقطع أعيان وجوه البلاد دياراً ومنازل في جبل بالإضافة إلى الجامع الذي تقام فيه الصلوات. الحميري: الروض المعطار ص 121.

(3) تلميح لقول الناصر المرواني باني الزهراء:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان =

لو عاينها المتقدمون من آل عاد بن[1] شداد، لأقروا لهم بالعجز وفضلوهم على الذين بنوا القصر من سنداد[2].

وجبل طارق هذا شريف البقعة، كريم التربة، عظيم المنعة، باسق مع أعنان السماء، يكاد في المسامتة إلى الجوزاء[3]، وكلما استودع في أرضه من البطحة المنبسطة من بعضه، نما وزكا وفضل، وجل وأثمر عن قرب لغرسه وأكمل، - واستقل من جميع الفواكه كشجر التين والعنب والتفاح والكمثري والسفرجل والمشمش والاجاص[4] والأترج والموز وغير ذلك على صبق صفته

= إن البناء إذا تعاظم قدره ... أضحى يدل على عظيم الشان!

المقري: نفح الطيب 2: 62.

(1) كذا في نص المخطوط: وعاد بن شداد، وهو دون شك سبق قلم من الناسخ والصواب شداد بن عاد، ويذكر المفسرون من أمثال الطبري والثعالبي والزمخشري أنه كان لعاد بن عوص ابنان هما شديد وشداد، وأن الملك خلص لشداد من بعد ودانت له الملوك وسمع وصف الجنة فقال: «لأبنين مثلها» فبنى إرم في صحاري عدن، وإنها كانت مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة. ومعلوم موقف العلامة ابن خلدون من أساطير إرم ذات العماد: ابن خلدون، 1: 20-21-22. ابن جزي: التفسير جزء 4 ص 197. النجار: قصص الأنبياء: ص 70-71.

(2) سنداد نهر فيما بين الحيرة إلى الابلة، به كانت منازل اياد، وكان عليه قصر عظيم تحج العرب إليه وهو القصر الذي ذكره الأسود بن يعفر في شعره:

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد

أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد

ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت 1957 مجلد ثالث ص 266.

(3) الجوزاء: نجم معترض في جوز السماء، ويظهر أن هنا كلمة سقطت للناسخ والأصل: تكاد في المسامتة يصل إلى الجوزاء، وقد علمنا أن ارتفاعه عن سطح البحر يصل إلى 425م.

(4) يذكر ابن صاحب الصلاة الاجاص على أنه شيء غير الكمثري، وأفاد في موضع آخر من الكتاب أن الاجاص فيه ضروب، منها النوع المعروف عند الأطباء بالكمثري، ومنها الاجاص المعروف بالعنقر، والنوع المعروف عند أهل بلنسية بالارزة، وقد ذكر ابن الخشاء أن الاجاص هو المعروف بالمغرب بعين البقر، وبهذا يلوح أن الإجاص هنا يقصد به العنقر الذي هو تحريف لكلمة عين البقر، وقد ذكرت بعض المصادر أن الإجاص عند الأطباء يشمل البرقوق. ابن صاحب الصلاة ص 322، ابن العوام، كتاب الفلاحة: الجزء 1 ص 1802، مدريد ص 260-263 أنظر ص 181 من كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس لمؤلف مجهول: نشر ويشي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 9-15 السنة 1962-1961.

الممتدة كالحبل، المستمدة من الطل والوبل. وماؤه عذب[1] زلال، مروق سلسال، وكان الحاج يعيش المهندس مدة إقامته للبناء على ما ذكرته فيه قد صنع في أعلاه رحى تطحن الأقوات بالريح[2] عاينها الثقات مدة البناء المذكور، فلما رجع إلى مراكش[3] [19] عند إكمال ما أمر به فسدت الرحى لعدم الاحتفال بها. واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور



(1) تتحدث بعض المصادر التاريخية عن تزويد الجبل بالمياه الجارية الكافية، وفيها ما يذكر أن المهندسين حفروا في سفح الجبل مواضع نبع فيها الماء، وجمع بعضها إلى بعض حتى سال منها جدول عم المدينة كلها، من أعذب الماء وأطيبه، نصب في صحن عظيم اتخذ له وأجري إلى الجنات المغترسة بالجبل. الادريسي: نزهة المشتاق ص 177 الحميري: الروض المعطار ص 121

(2) قد يكون هذا هو المصدر الوحيد الذي نص على وجود رحى ريح تطحن الأقوات بجبل طارق في تلك العصور القديمة وقد تحدث عن هذا الرحى (De Gayangos) دو كاينكوس نقلاً عن ابن صاحب الصلاة كما تحدث عن رحى الريح هذه (Balbas) بالباس نقلا كذلك، وبعدهما الأستاذ توريس وإذا صح أن أقدم رحى ريح تحدث في هنغاريا ترجع للقرن الثامن فإن أقدم رحى ريح توجد بالجهة العربية هي - فيما نعلم - هذه.

Grande Encyclpedie Tome 23 P 823 Al Maqqari Adpt Pascual de Gayangos T II P 314-315. Torres Balbas (Al Andalus) Vol VII Gibraltar llave y Guarda de Espana 1 1942 P 174

(3) مراكش مدينة عظيمة تقع جنوب المغرب أسست سنة اثنتين وستين وأربعمائة 462، وقد اتخذها اللمتونيون ثم المصامدة من بعدهم كرسياً للمملكة نظراً لقربها من صحراء لمتونة وجبال المصامدة.

الاستبصار ص 208-209-210 المراكشي: المعجب، نشر الفاسي 1938 ص 221 222 ابن خلدون سادس ص 377 العباس بن ابراهيم: تاريخ مراكش (أول) ص 63

Provençal la Fondation de Marrakech (Melange d Histoire et d'archéologie de l occident Musulman Tome II Page 117

بناء السور[1] والباب المسمى بباب الفتوح[2] في الفرجة التي كانت يدخل منها إلى الجبل بين البحر المحدق به من كلا جانبيه، فجاء فرداً في المعاقل التي لا يتمكن لطامع فيه طمع، ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع من بر ولا بحر، إذ هو معقل أشب، ومنزل للسماك منتسب.

واشتغل السيد الأعلى أبو يعقوب رضي الله عنه بإشبيلية مدة شهور في هذه الأوامر العلية، النافذة من الحضرة الإمامية، ولازم فيها الاجتهاد، وقاوم في ذلك الجهاد، يتطلع مع الساعات مبلغ أحوال المباني، وكيف التعاون في جميع المعاني، والفعلة يجتهدون في أعمالهم، وينصحون في الأشغال قدر طاقتهم من أحوالهم، فظهر البناء في أقرب مدة، وأبدى العامل عليه جهده، وأظهر نصحه بأعظم قدرة ما عنده

والسيد الأعلى مع ذلك يرتقب وصول الأخبار بقرب الخليفة من هذه الأقطار، فوصله الرقاص بالتحقيق، من إبانه والتصديق، أنه في أحواز

(1) كثر الحديث عن مصير هذا السور الموحدي، كما كثر الحديث عن ما آل إليه سور العرب، ويقول الماجور جرال كيبو (1938) أن ثمة أطلالاً مهدمة قائمة إلى الآن على الصخرة العلوية تهبط منعرجة إلى القمة الوسطى وتنتهي عند حافة الهاوية المطلة على الرمال، بيد أن البروفسور توريس يشك في هذه الأقوال، ويرى أن طارقاً لم يكن هو الذي بنى السور وإنما هو من عمل الموحدين الذين كانوا يهتمون بإحاطة المدن بالأسوار كما فعلوا في سور فاس والرباط وأسفي، لكن هذا السور الموحدي تلاشى بدوره وحل محله سور أبي الحسن المريني، ويتأكد أن آثار البناء الموجودة الآن حوالي المورش كاسطل (Castle Moorish) أو القلعة الحرة (La Calahorra) هي مزيج بين عمل الموحدين وعمل بني مرين كما تدل على ذلك تحليلات مواد البناء التي أجريت من طرف بعض الخبراء. ونأسف لعدم احتفاظ الأيام بالصورة المجسمة (الماكيط) التي صنعها السلطان أبو عنان لشكل الجبل بأبراجه ومخازنه ومساجده، فلو احتفظت بها قصور بني مرين بفاس لتوفرنا على معلومات مفيدة عن الجبل. الحميري ص 121 ابن بطوطة مجلد رابع ص 355 - 360. محمد الكانوني: اسفي وما إليه ص 79

(2) باب الفتوح: تجمع المصادر على أنه لم يكن هناك مدخل لمدينة جبل طارق إلا من موضع واحد، وهذا المدخل هو الذي يسميه ابن صاحب الصلاة «باب الفتوح» هذا ويعرف أن القائد جوهر جعل للقاهرة أربعة أبواب منها باب يحمل اسم باب الفتوح كما نعرف أن بمدينة فاس باباً يحمل هذا الاسم، وكذا بمدينة صبرة أو المنصورية باب الفتوح.

ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم صفحة 23-37.

فاس[1]، وقد استاق في أتباعه من العرب بني رياح وبني جشم[2] وبني عدي[3] وقبائلهم ما يضيق بهم الفضا، على عدد الذباب وعدد الحصى، فاستخار الله تعالى على النداء والحركة إلى التبرك بلقياه، وتقبيل يمناه والتيمن بمحيّاه وعزم على السفر في قطعة [20] من قطع البحر[4] ليعاين في مسيره أحوال البناء بجبل طارق، ويعبر البحر الزقاق[5] إلى العدوة[6]، ويكون في قباء الأمر العزيز قد سابق السباق، وأدى البيعة والميثاق، واجتنى اليمن الحلو المذاق.

(غدْر ابن همشك بمدينة قرمونة)

فلما كان يوم الجمعة من اليوم الذي عزم فيه بعد الصلاة أن يسير، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول وبموافقة اليوم الثاني والعشرين من مارس

(1) تقع فاس على مقربة من وادي سبو شمال الأطلس المتوسط، وقد ظلت الطرق الطبيعي الذي يربط بين العاصمة الموحدية وجزيرة الأندلس من جهة وبين إفريقية وباقي أطراف الامبراطورية من جهة أخرى وقد كان عبد المؤمن يعتمد التعريج عليها جيئةً وذهاباً بالرغم من وجود طرق ثانوية أخرى إذ أنه كان من طلبة العلم بها أيام شبابه. الإدريسي: نزهة المشتاق 64.
الاستبصار ص 181. ابن عذاري: البيان المغرب، المخطوط ص 37-125-126. الاستقصاء: ثان ص 63.
Celerier: L'Atlas et la Circulation au Maroc Hes 1927 T VII P 442 محمد المختار السوسي: سوس العالمة ص 10-11.
(2) كان أصل دخول بني جشم إلى المغرب أن الموحدين - كما ترى - لما علوا على أفريقية أذعن لهم هؤلاء بالطوع والكراهة كذلك. وعن أصلهم ونسبهم، أنظر ابن خلدون، المجلد السادس ص 58 - 68. الاستقصا ثان ص 146.
(3) من بني هلال. ابن خلدون سادس ص 355-356-357-913.
(4) اشتهر المسلمون في العصور الوسطى بقوة أساطيلهم ووفرتها، وكان لهم كما يحكي التاريخ في كل جهة (دار صنعة) للقطائع البحرية، ولكثر ما ذاع ذلك يرى بعض الباحثين أن كلمة ارسنال (Arsenal) تحريف فقط عن (دار الصنعة) المعهودة لدى المسلمين لصنع الأساطيل البحرية.
(5) بحر الزقاق، هو البحر المتوسط وربما سمي بحر الشام، وبحر الروم وبحر الاسكندرية وبحر القسطنطينية، وبحر الافرنج، وتذكر بعض الأخبار أنه كانت هناك قنطرة بين ساحل الأندلس وطنجة من بناء ذي القرنين طولها اثنا عشر ميلاً. معجم البلدان أول ص 345. الروض المعطار ص 83.
(6) يعني عدوة المغرب.

العجمي[1] عام خمسة وخمسين وخمسمائة خرج من الصلاة من الجامع فحين انفتل منها، ودخل في القطعة المذكورة، ووصله الخبر بغدر الفسقة أصحاب ابن همشك مدينة قرمونة[2] بتدليس الشقيّ عبد الله بن شراحيل[3] فيها، وبأن الموحدين الذين بها احتصنوا وامتنعوا بقنّتها، فخرج السيد الأعلى المذكور من القطعة في تلك الساعة وكان باقي ذلك اليوم باشبيلية يوماً عصيباً.

أحدث هذا الخبر فيها حوادث سوء وخطوباً، وفتناً وحروباً، وردّ الولدان من عظيم الأزمات شيباً، وامتنع السيد الأعلى من سفره، ورجع إلى مقره وحضره، ووجه عسكراً إليها على ما ذكرته في (التاريخ[4])، وتكدرت الأحوال بهذا الطارىء من الخبر وكدره، ونظر السيد الأعلى - أعلا الله أمره - في مقابلة هذا العدوّ بما وعد الله تعالى هذا الأمر العزيز في العاجل والآجل من عواقب

(1) اعتاد ابن صاحب الصلاة اقتداء ببعض من سبقه من المؤرخين القدامى، أن يوفق بين التاريخ القمري والسنوات الجوليانية، لكنه في أغلب الأحيان لا يوافق الجداول الجارى بها العمل من أمثال جداول الدكتور Cattenoz والموافق هنا هو 25 مارس 1160. هذا ويلوح من النص أن السيد أبا يعقوب كان يريد أن ينزل كما نزل أخوه إلى جبل طارق لولا غدر أصحاب ابن همشك بمدينة قرمونة، كما نستفاد من النص السرعة المتناهية التي استقبل بها مشروع بناء المدينة الكبرى على جبل طارق فإن الرسالة الثانية أرخت في التاسع من ربيع الأول 555 وحملت وفي أقرب تاريخ عن طريق البحر. انظر المن بالامامة ص 10-20.
(2) قرمونة (Carmona)، تقع على مقربة من اشبيلية في الشمال الشرقي منها، وهي مدينة كبيرة قديمة في سفح جبل، وحيطانها حصينة ممتنعة، ومن أبوابها باب برين، وباب قرطبة وباب قلشانة وباب اشبيلية، وبها جامع من سبع بلاطات على أعمدة رخام وأرجل صخر وبداخلها آثار كثيرة للأول إلا أن جله اندثر.
الروض المعطار ص 158 - 159. أحمد بن المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، نشر الفريد البستاني طبعة تطوان 1941 ص 34.
(3) نفس ما عند ابن عذارى، وابن الخطيب. انظر البيان المغرب ص 29 وكتاب أعمال الاعلام ص 261.
(4) يعني تاريخ المريدين كما سيؤكد بعد سطور، ومن حسن الحظ أن يعتمد ابن صاحب الصلاة على هذه الإحالة وأن يعيد بعد ذكر أخبار قرمونة ص 45 فإن المصدرين الوحيدين اللذين ردّدا صدى كتاب (تاريخ المريدين) - فيما نعلم - هو الحلة السيراء لابن الأبار والذيل والتكملة لابن عبد الملك، ولكن ابن الأبار بالرغم من تعرضه لبعض الثوار نقلاً عن ابن صاحب الصلاة أهمل ذكر أخبار قرمونة في أحداث المائة السادسة. الحلة السيراء 199-202-206-213-223.

النصر حسب ما قد ذكرته في (تاريخ المريدين) وحسب [21] ما أعيد ذكره في «هذا التاريخ»(1) بعد الفراغ من ذكر الورود السعيد الميمون الطالع بالتأمين والفتح المبين: ورود سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه وعبوره البحر الزقاق إلى جبل طارق.

ذكر عبور الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه البحر من سبته(2) إلى الأندلس ونزوله منها في مرفأ(3) جبل طارق

وذلك في شهر ذي القعدة من عام خمسة وخمسين وخمسمائة الموافق لشهر ينير(4) العجمي من العام المؤرخ به عند إيابه من غزوته المهدية وفتح جميع إفريقية ليجتمع بطلبة الموحدين الذين فيها وينظر كيف يكون غزو الروم والمحاربين في نواحيها.

قال الراوية: وبرز إليه يوم إجازته البحر من الناس النظارة على سيف البحر عالم لا يحصيهم إلا خالقهم، وكان يوماً مذكوراً مشهوراً ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ما لم يتقدم في سالف الأزمان، ولا تخيل مرآه في الأذهان.

(1) عبارة صريحة في أن لابن صاحب الصلاة كتابين: الأول سابق وهو تاريخ المريدين، والثاني لاحق وهو هذا التاريخ، هذا وسيذكر أخبار قرمونة ص 45 كما سلف قريباً.

(2) مدينة من العدوة المغربية تقع على شاطئ المتوسط يحيط بها البحر من ثلاث جهات وهي قديمة فيها آثار كثيرة، وعن مدرستها تخرج علماء جلة، وعلى مقربة منها تقع قرية بليونش حيث يوجد (جبل موسى بن نصير) الذي كان منه عبوره لأول مرة إلى ساحل طريف. الادريسي ص 167 الاستبصار ص 138 - 137.

(3) كذا كتب في الأصل ولعل الصواب مرفأ بالفاء أو المرقى بالقاف، هذا وقد تعود الجيش الموحدي أن ينزل غالباً بجبل طارق كلما كان إبحاره من سبتة كما اعتاد أن يقصد طريف كلما تحرك من قصر مصمودة أو القصر الصغير، دوكاسري، فرنسا السلسلة الأولى المجلد الأول ص 124 تعليق 3.

(4) ذو القعدة يوافق في الواقع نونبر - دجنبر 1160.

قال المؤلف (1): ولما أنارت الآفاق بالعدوة والأندلس بالبشائر الواصلة بقرب الخليفة في الإياب من المسير، على أوفى الظفر والتيسير، أنفذ السيد الأجل الأعلى أبو يعقوب [22] عزمه الأول بالإسراع، والوخد والذميل لبركة اللقاء والاجتماع، واستناب باشبيلية من طلبة الموحدين - أعانهم الله - من ينوب منابه في محاربة أهل قرمونة الأشقياء أصحاب ابن همشك، على ما أذكره بعد فراغي (2)من ذكر هذا العبور السعيد. وتقدم وواصل سيره للقاء وأبرم بجملة أصحابه من أبناء الجماعة الجلة أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي (3)، وأخيه أبي يحيى (4)، وأبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم (5)وأبي يحيى بن أبي حفص ابن يحيى (6)وأصحابهم الموحدين وشيخ الرؤساء بالأندلس أبي العلاء بن عزون وأشياخ الأجناد والقواد الأندلسيين

ووفد السيد الأجل أبو سعيد بجميع أشياخه من الموحدين وأبناء الجماعة أصحابه وحفاظه وأشياخ غرناطة وأنظارها ووصل الجبل المذكور يوم وصول السيد الأعلى أبي يعقوب. ونفر الناس عند مشي هذا السيد الضخم

(1) أخذ المؤلف يعتمد على ما شاهده هو من أحداث وهو في الأندلس

(2) ابتداء من صفحة 36

(3) هذا هو أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي الذي عُيِّنَ والياً على اشبيلية من لدن عبد المؤمن في الوقت الذي عين فيه عبد الرحمن بن تيجيت، وذلك سنة خمسين وخمس مائة، وقد استمر في مهمته مجاهداً مخلصاً إلى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة عندما ولد أشياخ الأندلس - وهو من صميمهم - على الحضرة يقترحون على الخليفة تشريعهم بوال من السادة وآنذاك تم تعيين ولده السيد أبي يعقوب يوسف، وقد استشهد أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي في موقعة مرج الرقاد عام 557

ابن صاحب الصلاة ص 53-54 ابن عذاري ص 11-12-13

Dozy Recherches Page 375

(4) أبو يحيى بن أبي حفص بن علي، وقد اختفى ذكره باختفاء أخيه الوالي الشهيد

(5) يعتبر محمد بن أبي إبراهيم من رفاق ابن صاحب الصلاة الذين كان لهم تأثير على حياته، وقد ترجم له ترجمة كاملة صفحة 152

(6) من الوفد الذي بعث به أبو يعقوب يوسف إلى قرطبة للاتصال بأخيه أبي سعيد عثمان في شأن الحصول على طاعته لأخيه وذلك إثر وفاة عبد المؤمن، ثم رافق الوفد لجبل طارق عندما تم إصلاح باب البر

من أهل اشبيلية من شيوخها وطلبتها وأعيانها وقاضيها أبي بكر الغافقي والشيخ الحافظ أبي بكر بن الجد [1]، وابنيه [2]، وسائر أهل النباهة باشبيلية من الكبراء والشعراء وكذلك أهل قرطبة وجميع الأقطار والأنظار التي تحت طاعة الموحدين أيدهم الله ووفد إلى ذلك أهل غرب[3] اشبيلية من كبرائهم وشيوخهم وطلبتهم وشعرائهم [23] . . [4] ادهم وأجنادهم ووصل هذا الجمع على أوفى العموم إلى الجبل بذلك المشهد العظيم، والمسلك الكريم.

وعلم الخليفة رضي الله عنه بوصولهم وحلولهم وبيدارهم وإسراعهم واجتماعهم فأمر وزيره ابنه السيد الأعلى أبا حفص أن يجمع الوفود من كل البلاد وأن يدخلهم إليه بمجلسه العالي للسلام ولتجديد البيعة الكريمة وتقبيل اليد المباركة منه والاستسلام. فدخلوا على ترتيب وتأديب وسلموا سلام جماعة وتكلّموا اقراراً بالطاعة، وتقدم أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي [5]مع القاضي أبي بكر الغافقي لتعيين أهل اشبيلية وتسميتهم وأهل الغرب، وكذلك قاضي قرطبة في تعيين أهل قرطبة ونظرها. وقام الخطيب أبو

(1) هو محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرج بن الجد الفهري، سمع سلسلة كتاب سيبويه، وأخذ كتب اللغات، ولقي بقرطبة أبا الوليد بن رشد فناوله هذا كتاب البيان والمقدمات، نال حظوة عند الملوك، وكان حافظ المغرب لمذهب مالك وقد كان في جملة الوفد الذي قدم على عبد المؤمن صحبة أبي بكر بن العربي. توفي باشبيلية في شوال من سنة 586 ابن الابار: التكملة لكتاب الصلة (كوديرا) رقم 825 الحلل الموشية ص 34 - 122 البستاني: دائرة المعارف مجلد ثان ص 403
(2) لعله يعني بهما ولديه عبد الرحمن وأحمد اللذين كانا أول القادمين لفاس من عائلة بني الجد المجيدة، نعرف له ولداً آخر اسمه عبد الملك. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 953 ابن أبي زرع: الأنيس المطرب. تعليق الهاشمي الفيلالي 2 182 الرباط 1936
(3) الغرب (Algarve) يعني غرب الأندلس . . وتعرف به ناحية لشبونة وياسرة. انظر خريطة بروفنصال.
(4) الخطوط السبعة التي توجد تحت الكلمات التالية تُشير لكشط بوجه أوائل السطور السبعة الأولى من الصفحة وقد اجتهدنا في ملئها بكلمات مناسبة
(5) تقدم في التعليق رقم 3 ص 93 أنه كان والياً على اشبيلية قبل تعيين السيد أبي يعقوب، لكنه ظل محل تشريف وظل كأنه الوالي الشرفي، ولذلك نراه اليوم يقوم - مع قاضي اشبيلية - بمهمة تقديم الوفود للخليفة عبد المؤمن

الحسين بن الاشبيلي [1] وصاحبه أبو محمد بن جبل [2]وأبو محمد المالقي [3] وخطبوا على انفراد، كل واحد منهم خطبة في حق البيعة ولزومها، وربط الشرع لعهودها ورسومها، وأفصحوا بما خطبوا، وجاؤا من كلامهم بالسحر الحلال وأطنبوا، ثم أذن لهم بالقرب بتقبيل اليد المباركة على ما بين من البيعة على الإيمان والأمانة، ولزوم الوفاء بالطاعة والديانة، وأذن للشعراء في [4] الانشاد، بذلك المجلس العالي الشريف العماد، فأوردوا ما نظموه من فكرهم بمحضر الوارد والرواد، واحتفال الوفود [24] والاشهاد، فقال أبو بكر بن المنخل الشلبي [5]مهنئاً مادحاً، وفي ذلك الجمع منشداً مادحاً وقال. (طويل)

فتحتمْ بلادَ الشرقِ فاعتمدُوا الغربَا ... فإن نسيمَ النصرِ بالفتحِ قد هبّا[6]
اضرتم إليه الخيلَ وهي أحادلٌ ... فسالتْ بكم بحراً وطارتْ بكم ركبا[7]

(1) هو علي بن محمد بن خليل أبو الحسين عرف بابن الاشبيلي، سكن المرية وأخذ عن أبي القاسم بن ورد وقد كان خطيباً مفوهاً، وقد أخذ عنه أبو القاسم بن الملجوم وأبو عمرو بن عثمان بن عبد الله وكذا عبد الملك ابن صاحب الصلاة، توفي بمراكش سنة 567. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 1862، المن بالامامة ص 85
(2) هو عبد الله بن جبل صاحب ابن الاشبيلي والخطيب بعده، من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان. المراكشي: المعجب طبعة 1949 ص 200 المن بالامامة ص 85-86
(3) انظر التعليق رقم (1) صفحة 71
(4) يذكر المراكشي أن العادة المتبعة لدى الخليفة عبد المؤمن في مناسبات التهنئة أن يستأذن الشعراء في الانشاد فيؤذن لهم، لكنه هذه المرة - بمناسبة بناء مدينة جبل الفتح - استدعاهم ابتداء. المراكشي: المعجب، طبعة 1949 ص 213
(5) محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن المنخل المهري، يكنى أبا بكر، كان من الأدباء المتقدمين والشعراء المجيدين مشاركاً في علم الكلام، من شعره

مضتْ لي ستٌّ بعد سبعين حجةً ... ولي حركاتٌ بعدها وسُكُون
فيا ليت شِعْري أين أو كيفَ أو متى ... يكُونُ الذي لا بُدَّ أنْ سيكُون؟!

وقد توفي في حدود الستين وخمسمائة
ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 730، ورقم 1427 الحلة السيراء 205 المقري، النفح، 5 213-254
(6) الخطوط الأربعة التي توجد تحت الكلمات تشير لكشط يوجد أواخر السطور الأربعة الأولى من الصفحة وقد اجتهدنا لملئها من عند الظن
(7) في ابن عذاري (شهبا) ص 24

ودسْتُم بها هاماتِ كلّ مضلّلِ … ولم تتركُوا عجماً هناك ولا عُرْبا
رميتُم بها مثلَ السُّهام فأصبحتْ … كُماتُهم صرعى وأموالُهم نهْبا
أتوكم يجرون الحَديد سوابغاً … كأنهم البحرُ الغمالط قد عبّا
وطنوا - وفي الظن الجهالةُ - أنَّهُمْ … يفلُّون من أحداك الصارم العضبا
فلما تلاقيتم وبيَّنَت الوغى … تولوا وقد طارتْ قلوبُهم رُعْبا
أصلتْهم البيضُ الصوارم والقَنَا … فكانت لهم رفعاً وكانوا لها نَصْبا!
وقادتْهُم تلك السيوفُ إلى الرَّدَى … وما غادرتْ سهْلَ القِيادِ ولا صعْبا!
وراموا فِراراً والرماحُ تنوشُهُم … فما قَطَعُوا فجّاً ولا سَلَكُوا شعبا
وخرُّوا جميعاً هامدين كأنَّهُمْ … ندامى تساقوا بينهم أكؤسَ الصَّهبا
تَغشَّتْهُمْ سُودُ المنايا فأصبحت … مفارقُهم تغشى الجنادلَ والتُّرْبا!
وهبَّتْ عليهمْ ريحُ بأسِك خَرْجَفاً … فما تركتْ نَبْعاً عليهم ولا قضْبا
لقد حكَّمت فيهمْ ظُبى الهِنْدِ رأيها … تقتّلهُم ضرْباً وتوسرهم سِرْبا
وكانوا لكم جُنْداً فصارُوا غنيمة … كذلك من يُزهي بآرائه عُجْبا
فروكم عتاقاً شُزَّباً وعواتقاً … بما قد قراهم جيشُك الطَّعنَ والضَّربا
أقيموا إلى ابن الرِّيق[1] بعد صدورها … وليس عَلَيْكم أن ترى ضُمّراً قُبّا[2]
[25] رعتْها القيافي فاستدقت جسومها … بما قد رعتْ فيها الكلا يابساً رطْبا
عليها رجالٌ كالقِداح، وإنَّما … يكونُونَ في الهيجاءِ هِنْديةً قضْبا
فإن تَنْدُوا بالغرْب فالفتحُ واضحٌ … وإنَّ نجومَ الدِّين طالعةٌ غربا
ضمانٌ عليكم أن تبيحوا حَريمَهُ … وأن تكسروا فيها التماثيلَ والصلبا
وأن تُوردوها نهر (دُوير[3]) صواديا … فتألف أن تسقى بها البارِدَ العذبا

(1) ابن الريق هذا هو ألفونسو هنريكيز (Alfinso Enriquez) وقد تسميه المصادر كذلك ابن الرنك، أو صاحب قلمرية، أي صاحب البرتغال لأن قلمرية آنئذ عاصمة البرتغال. المراكشي: المعجب 320. ابن الخطيب: الاعلام ص 251. أشباخ: تاريخ الأندلس، ترجمة عبد الله عنان طبعة 1958 ص 242-245-279 - Terrasse Histoire du Maroc II P 321

(2) القب: العظم الناتىء من الظهر، ويكني الشاعر بهذا عن هيف المطايا.

(3) نهر دُويرُه (Duero) من الأودية الأربعة التي تصب في المحيط، وادي مينو، وتاجه، وآنه، وهو ينحدر من جبال قشتالة القديمة ويصب عند البرتغال في بورتو (Porto) غربي الجزيرة، وتسميه =

تعافُ غيرَ الماء صفواً، فإنْ جرَى … بهِ من دَم الأعداء أفيْته شُرْبا!
ومَن تَجِدُ الأساد حزْبه … أعد مُجاجات الكُلوم له شِرْبا
يلودُونَ في الهَيْجا بأروعَ ماجدٍ … إذا دَارتِ الهيْجاءُ كان لَها قُطْبا
وإن عصفت ريح الوغى أحدقُوا به … فكانوا لَهُ جِسْماً وكان لَهُم قَلْبا
مليكٌ كأنَّ الأرض قبضةُ كفِّهِ … فلا تُغْدُ فيما يجتبيه ولا قُرْبا
لِكفّيْه فضْلَ بانَ عن كلِّ فاضلٍ … إذا شُدَّ عقْدَ السِّلْم أو نعتَ الحرْبا!
إذا أخذتْ أرضٌ نحاها بجُودِهِ … فما أعْزَزَ السُّقيا وما أكْثر الخصْبا!
وَلو عِلِم النَّاسُ الخفياتِ أمْرَه … لما دَرسُوا صُحُفاً ولا صنَّفوا كتبا!
وَقدْ كان هَذَا الدِّينُ ولَّى شبَابُه … فلمَّا تولَّى الدِّينُ لم يعْدُ أن شبَّا
إذَا ما ذكرناه وقد ضاق أمرُنَا … تفرَّجَ حتى صارَ متسعاً رحْبا!
كذلك مَن يَلقى الخَليفَة تلْقَه … بَشائِرُ يستجْلي بها السَّهْل والرَّحْبا!
نسينَا بِهِ أسماءنا وديارنا … فها نَحْنُ لا نرتاح إن ذَكرُوا شِلبا[1]
بلادٌ قضى فيها الشَّباب مآربي … وأبقى لنفسي ما بقيت بها إربَا[2]
تبشِّرُنا عنه الصَّباحُ بغُرَّة … إذا طَلَعَتْ حيَّت ببهجتها الركبا
[26] فقل لابنِ رَيمُنْد[3] تأهب لغزوة … يُسدُّ عليكُمْ جَيْشُها الأفتحُ السَّهبا!

= العرب بالوادي الجوفي. هذا ويضبط الاسم بضم الدال وتسكين الياء وضم الراء ليستقيم وزن البيت. ابن الخطيب، أعمال الاعلام ص 67. أشباخ: تاريخ الأندلس ص 236. شكيب ارسلان: الحلل السندسية، الأول 28.

(1) شلب (Silves) تقع على مقربة من شاطىء المحيط الأطلسي غربي جنوب مدينة باجة، وشمال غربي شنتمرية، عليها سور حصين ولها غلات وجنات. الحميري: الروض المعطار ص 106-107-108.

(2) البيت يحيل لقول الشاعر:

بلد صحبت به الشبيبة والصبا … ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثَّل في الضمير رأيته … وعليه أغصان الشباب تميد

ويشير لقول ابن الرومي:

وحبب أوطان الرجال إليهم … مآرب قضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم … عهود الصبا فيها فحنُّوا لذلكا

(3) ابن ريمند يعني به - والشاعر يتكلم سنة 555 (1160) - ريمند بيرانكير الرابع (Raimundo Berenguer IV) المتولي بعد وفاة أبيه ريمند الثالث سنة 525 (1131)، وقد تلقب بالقديس واتفق مع =

إذا جرّدتْ فيها السيوفُ حسِبْتَها ... جَداولَ رَوْضٍ، والرماحَ بهِ قضْبا
كأن نعام الدوِّ باضتْ بأفْقِه ... وقد لقحتْ هُوجُ الرياح بِه سُحْبا!
وإن عشرت أعلامُه لمُحارِبٍ ... جرى دَمُه من تحْتِها وابِلاً سَكْبا
وإن لقيت هضْباً حوافرُ خَيْلِهِ ... أصارتْه سَهْلاً لا ترى فَوْقه هَضْبا
إذا جاوزت دَرْباً إليكم فإنُما ... يجُوزُ وشيكُ الموتِ نحوَكمُ دَرْبا!
وإن يقضِ نحْباً منهم ذُو بَسالةٍ ... فمن نفْس جبّارٍ لكم يقْتضى النَّحْبا!
ويسْتنْشِدُ البطريقُ[1] في عرصاتِكم: ... «فدَيْناكَ من رَبْعٍ وإن زدتنا كرْبا[2]»
امرسلُها شُعْثَ النواصي سَوَاهِما ... ومُصْدرها شُقْراً وقد وردَتْ شُهْبا
تَرِقُّ علينا إنها خيرُ مَكْسَبٍ ... وأفضلُ مَال المرْءِ أفضَله كَسْبا
فلوْ لم تُجِزْها السُّنُ نحو عدوُها ... لجَازَتْ إليه البَحْرَ تقطعُه وثْبا!
فما اعطت العُرْبُ القِيادَ طَواعَةً ... ولا أسْمَحت ودّاً، ولا أذْعَنت حُبّا!
ولكن رأتْ شُهْبَ الهُدَى مُسْتَنيرةً ... فخافَتْ رُجُوماً مِنْ أسنتِه شُهْبا!
رأوا بكَ دينَ الله كيْف اعتزَازُه ... وانتَّم له حربٌ فكانوا لَهُ حَرْبا.

ـ رامير الثاني ملك ارغون، على أن يتزوج بالأميرة بِتْرُنِلّة (Petronilla) وارثة مملكة ارغون، ثم لما خلع رامير نفسه من ملك أرغون واختار الرهبانية بايع أهل ارغون ريمند الرابع ملكاً عليهم، فصارت في يده قوة عظيمة وتحالف مع ادفونش ملك قشتالة واستمر ملكاً إلى سنة (1162) 557. هذا وليس بعيد ـ كذلك ـ أن يكون القصد بابن ريمند ادفونش الصغير حفيد ريمند المعروف تحت اسم الفونسو الثاني (El Rey Chico)، هذا بالإضافة إلى إمكانية احتمال الابن الحقيقي لريموند وهو فرنالده السوج فهي اعتبارات ثلاثة. نرقب تعليقاً ص 230 من المن بابن الخطيب: أعلام الاعلام ص 337. الحميري: الروض المعطار ص 43 - 42 الترجمة الفرنسية ص 54. أشباخ تاريخ الأندلس ص 258 - 254 شكيب ارسلان: الحلل السندسية جزء ثان ص 220
Melchor Antuna: Al Andalus Vol 1 1933 P. 105 - 153
ابن خلدون: رابع ص 397
Dozy: Recherches P. 115

(1) البطريق (Patriarche): رئيس الأساقفة وقبل انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية كان يوجد خمسة بطارقة، وبعد انفصالها بقيت الكنيسة الشرقية تنقسم إدارياً إلى أربعة بطارقة بينما صار لقب البطريق في الكنيسة الغربية لقباً تشريفياً فقط.

(2) فيه من البديع الإيداع وهو من أنواع التضمين، فلقد أودع فيه ابن المنخل من شعر المتنبي في مدح سيف الدولة:

فديْناك من ربعٍ وإن زدتنا كرباً ... فإنك كنت الشُرق للشمس والغربا

وقام محمد بن المدهور وأنشدَ لأبي العباس الأستاذ بن سيد[1] الإشبيلي ـ عرف باللص ـ هذا أبو العباس يعرف باللص وإنما سمي باللص لقوله: (مضارع)

[27] خَلَسْتَ قلبي بطَرْفٍ ... أبا الحُسَيْنِ خَلُوب
فلِمْ أُسَمى بِلصٍّ؟ ... وأنْتَ لصُّ القُلوب[2]!

يعني أبا الحسين قَنْدَلة[2] في أيام الفتوة، قصيدة بعثها معه إذ كان ضعيفاً عن الوصول بها: (بسيط)

غَمِّضْ عن الشَّمْسِ واستقْصر مَدَى زُحَلِ[3] ... وانظُرْ إلى الجَبَلِ الرَّاسي على الجَبَلِ؟
أنّى استقرّ لهُ أنّى اسْتَقَلَّ بِهِ ... أنّى رأى شخصَه العالي ولَمْ يَزِلِ[5]
أنّى أطاقَ له حَمْلاً وقد عجزتْ ... عنه الصُّدُورُ، وفيها كلُّ مُحْتَمِلِ
وَمنْ تكُنْ رُحُبُ الأذْهانِ ضيِّقَةً ... عن حَمْلِهِ لم يَسَعْهُ أرْحبُ السُّهُلِ!
لكِنْ رَأى جارَه ذا اللُّجِ يحمِلُه ... فكانَ ما كانَ بَيْنَ العَجْزِ والفَشَلِ[6]
لِتَهْنَ أندلُساً أنْ زارَها مَلِكٌ ... أحْيَى وأنْشَر فيها مَيِّتَ الأمَلِ
وَمنْ تَكُن عادةُ الإحياءِ عادتَه ... هانَتْ على راحتَيْه جمْلةُ العِلَلِ!
خليفةُ الله ما جاءَ الزَّمانُ بِهِ ... إلّا ليرفُوَ ما فِيهِ مِنَ الخَلَلِ
تعنى بعَزْمَتِه الأقْدارُ مُخْلِيَةً ... عَنْ حَادِث خَلَلٍ في الحادِثِ الجَلَلِ

(1) هو احمد بن سيد الاشبيلي، وهو غير ابن سيد المالقي، اقرأ العربية والآداب واللغات، وكان قائماً عليها متحققاً بصناعتها شاعراً مع ذلك مغلقاً، وقد توفي سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمس مائة، التكملة طبعة بيل - ابن أبي شنب ص 98 رقم 212. المراكشي: المعجب ص 217. المقري: النفح 5 17 - 18 - 325. ابن سعيد: المُغْرب نشر شوقي ضيف أول ص 202

(2) صفوان بن ادريس، زاد المسافر نشر عبد القادر محداد بيروت 1939 ص 52. انظر نفح الطيب جزء خامس ص 332-335

(3) المقري: نفح الطيب تعليق عبد الحميد جزء خامس ص 22.

(4) زحل: كوكب تحيط به منطقة نيرة يضرب به المثل في العلو والبعد كما قال الطغرائي:
وإن علاني من دوني فلا عجب ... لي أسوة بانحطاط الشمس عن زُحل!

(5) لم يرد المراكشي في المعجب على هذين البيتين ص 217.

(6) أضاف صاحب زاد المسافر هذا البيت على البيتين الأولين ولكن فيه عوض العجز (اللعي).

دُون الخِلافَة في أخفايه رَمعٌ، … صدهتْ سيفُه لَمْ يفد في الخلل
فاستله قَبَساً تركو لَهُ شُعل … تكادُ تَحرِق دِرْع الفارس البَطَل
كالطلّة التهبتْ من كلِّ ناحيةٍ … حتى رمَتْ بالّتي تَرْمي عن الطّلل
عجبْتُ أن يتصدّى المُمْحِلونَ لَهُ … وما بأعطافه نَضْحٌ من البَلَل .

[28] وأن يُقيم مِنَ المَيْل المُبين ولا … يُقيم ما بعرارِيْه من الهَبل
ملك إذا تَشْعل الدُّنْيا أخا تَرفٍ … ألفيته بالمَعالي جَدَّ مُشتغل!
وإن نظرتَ إليه وهُو مُنفَرِدٌ … رأيت فيه جميعَ النّاسِ في رجُل!
مَا زَال يُغْضي فيُعْطي صافحا كرما … والصَّفْحُ قدْ يَحمِلُ العاصي على الزَّلل
حَتّى إذا خطر العَاصي بخاطِره … لم تَرْخُ فِتْراً لهُ الأيام في الطّوَل!
وكمْ له وقْعَةٍ في كلّ طاغيةٍ … علتْ على وَقعاتِ الأعْصُر الأول
يعزُوا المُحدِّقَ في تَردادِها نظراً … ما لَيس يعْزُوه من صفّين [1] والجمل [3]
سَمَا إلى الشّرق بجناب اليابَ به … عُتُقُ المَهارة والمهْريةِ الذُّلُل
والمُلك ليسَ بمُرسَاةٍ قواعِدُهُ … ما لَمْ يقُمْ بين أيْدي الخيْل والإبل!
وجحْفلٍ لجِب سُدّ الفجَاجُ به … وأعثر الطّيْرُ منهُ في ذرى الأسَل
تعدُو ذكاءُ وهْي قد بهتتْ … فتستجدُ أساةً من سَنى المُقَل
مصاحباً مثله مي اليَمّ متّصلاً … منْه بحزْم وعَزْم غَيْر منْفصل
مِنْ كلِّ عائمَةٍ في شَكْل طائرَةٍ … تَشاكل الأمْرُ فيها كلُّ مستكل
هِيَ الأسَاودُ إلّا أنّها خُشِيتْ … أسْداً فطالَتْ وَلوْلا الأسْد لَم تطُلُ
فدوّخ الأرضَ لم يغْتص لهُ مَلكٌ … إلّا وصيّرهُ أعْفى من الطّلَل!
ولا تمسّع جيْشٌ أن يَسدِينَ لهُ … إلّا توزّعَ بَيْن القَتْل والنّفَل
تُزهى بملكٍ قديرٍ كلُّ مملكةٍ … ويَزْدهي ربُّها إنْ عُدّ في الخول!

(1) صفّين موضع بقرب مدينة الرقة تقع غربيها حيث كانت الواقعة الشهيرة بين علي رضي الله عنه ومعاوية سنة 37.

ابن خلدون المجلد الثاني صفحه 1096-1114

(2) يعني الوقعة العظمى المعروفة بوقعة الجمل التي كانت سنة 36 في البصرة. ابن خلدون، 2، ص 1961-1090.

حَتّى إذا اسْتَوسَق الأمْرُ العلي لهُ … بالشّرْقِ كَرّ لنصْر الغَرْب في عجَل!
فكان كالنّوْم في أجفان ذي سُهُدٍ … أو كالأمَان على أحْشاء ذي وَجَلِ!
[29] أضحى بكرته الإسلامُ في جَذَلٍ … والمُشركون وأهْلُ الكُفر في خَذَل:
كُلٌّ يُولّي صريح العَدْل صاحبَه … والسّيفُ يَسْبِق مَا يَأتي من العَذَل
استأسدُوا عند مسآه! وعزّهُمُ … أنْ عَادَلُوا بين مُشْتعلٍ ومستبِل!
أيعدل الغيمٌ غُرٌّ المزن لَوْ عَقَلُوا … أو يُجْعل السّمَل المشفوه، كالسَّبَل [1]
أبلغْ ذوي الشّرْك والإلْحادِ قاطبةً … أنّ مَا لهُم من جُنود الله من قِبَل!
أتاكم الجَيْشُ محفوفاً جوانبُه … بالمَشْرفيّة [2] والخطّيّة [3] الذُّبل
يدعُوا إلى السّلْم والاسْلام ويحكم … لا تَحْسبُوا دولَة التّوحيدِ كالدُّول!
فإن أبيتُم حقَنتُم من دمائكُمْ … وإن أبيْتُم فحلفُوا فجأة الأجَل
والله يُخلد مولانا وسيّدنا … حتّى يبلّغ فيكم غايَة الأمَل!

قال الراوية لما أنشد المنشد هذه القصيدة بين يدي أمير المؤمنين أنكر أمير المؤمنين هذا البدء في قول الشاعر. «غمّض عن الشمس» وقال على مسمع من الناس: «غمِّضْ! غمِّض!» منكراً لها [4] لأنه كان يحب الفأل

(1) السمل: بقية الماء في الحوض، والسّبل: المطر بين السّحاب والأرض، وماء مشفوه: كثُر الشاربة، كذا في لسان العرب. وقد كتب الناسخ طرة تعليقاً على هذه المفردات يقول فيها - فيما قرأنا -: «كذا في أصل المؤلف» ذكر صاحب العين: (السمَل بالميم: الماء القليل، والسبل بالباء: الكثير من الماء، المشفوه: يعني بالشفه) وهو يعني بصاحب العين الخليل الفراهيدي في كتابه المسمى «العين» (مخطوط). انظر مقدمة كتاب مختصر العين، تحقيق علال الفاسي ومحمد بن تاويت. طبع 1963

(2) أي السيوف المشرفية نسبة إلى قرى من أرض العرب تدنو من الريف اسمها مشارف الشام ويقال أيضاً أن النسبة إلى موضع باليمن

(3) أي الرماح نسبة إلى الخط: موضع باليمامة، خط هجر، تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تحمل من بلاد الهند فتقوّم به، ومنه

وهل تُنبت الخطّي إلا وشيجه

(4) في المعجب أن عبد المؤمن توجه إلى الشاعر - الذي يعتقد المراكشي أنه كان حاضراً بنفسه - قائلاً: لقد ثقلتنا يا رجل! فأمر به، فأجلس، قال المراكشي: وهذه القصيدة من خيار ما مدح به لولا أنه كدّر صفوها بهذه الفاتحة. المعجب، القاهرة ص 217.

الحسن، لكنه أمر له بعشرة دنانير عليه، كما أمر لكل شاعر، وأمر بعشرين مثقالاً لكل من وفد إليه من قاصد لرؤيته وزائر.

وقام القرشي الأمي القرطبي المعروف بالطليق[1] - عرف بالطليق بسبب جده الذي أطلقه رسول الله ﷺ[2] - فأنشد وأجاد، واستحسن [30] شعره، وكان الكاتب أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي[3] كاتب الخليفة واقفاً يحسن أبياته ويكررها، وأولها: (بسيط)

ما للعدا جُنَّةٌ أوقى من الهرب   كيف المفرُّ وخَيْلُ اللهِ في الطَّلب[4]
لو نُدَّلُوا قُدماً رلَّتْ بقادمه   لأصبح الكلُّ طيّاراً من الرعب
وأين يَذْهَبُ مَنْ في رأسِ شاهقةٍ   إذا رمَتْهُ سَماءُ اللهِ بالشُّهُب[4]
قدْ لاذَ بِلُرِّ الدُّجى منكم بهالته   واكتنَّ ليثُ الشَّرى في غِيله الأشِب
حَدَثٌ عن الرُّوم في أقطار أندلسٍ   والبحْرَ قدْ مَلأ العَبْرَيْنِ بالعرب[4]
مِن كلِّ من يترك الهيجاءَ في حلكٍ   جمْرٍ إذا احضرَّت الغَبْراء بالعُشُب
مقلّب بين مشتاةٍ وهاجرةٍ   تقلُّبَ السَّيفِ بين الماء واللَّهب
يرْمي بهم ظَهْر طرفٍ بطْن سابحةٍ   فالبر في شُغُلٍ والبَحْرُ في صَخب

---

(1) سميه المقري بالأصم المرواني، وقد أورد المراكشي بعضاً من القصيدة المذكورة هنا كما فعل المقرّي. المعجب ص 215. زاد المسافر: الترجمة رقم 39. نفح الطيب جزء خامس ص 130
(2) نرى أن سبب تسمية هذا الشاعر بالطليق لأن الرسول عليه السلام أطلق جده والمراكشي يعلل التسمية بأن جده كان طليق أبي عامر محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور وأن سبب الافراج كان أسطورة نعامة فلذلك يعرف بطليق النعامة. المعجب ص216 - 217.
(3) عبد الملك بن عياش بن فرج بن عبد الملك بن هرون الازدي القرطبي وأصله من مدينة يابرة بالأندلس، صحب بني حمدين بقرطبة ثم استخدمه الموحدون بعد ذلك في الكتابة، وكان مع تقدمه في الآداب وتصرفه مشاركاً في النظم من أبرع الناس خطاً وكانت له من الولاة منزلة جليلة ومن شعره

عصيت هوى نفسي صغيراً فعندما   رمتني الليالي بالمشيب وبالكبر
أطعتُ الهوى عكس القضية ليتني   خُلقت كبيراً وانتقلت إلى الصغر!

وكانت وفاته سنة 568. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 1721
(4) الأبيات الثلاثة التي اكتفى بها المراكشي (ص 216) واقتصر ابن عذارى على البيتين الأولين، انظر ص 24 منه

وتغمرُ الماء منهم نارُ عاديةٍ   يَصْلى بها عابدُ الأوثانِ والصُّلُب
وطودُ طارق قَدْ حَلَّ الإمامُ به   كالطُّور[1] كان لموسى أيمنَ الرُّتب[2]!
لَوْ يعرف الطود ما غشاه من كرمٍ   لم يبسط الغور فيه الكفُّ للسحب[2]
ولو تيقَّنَ بأساً حلَّ ذِرْوتَه   لعادَ كالعِهْنِ من خَوْفٍ ومن رهبٍ[2]!
مِنْه يعاود هذا الفتحَ ثانيةً   أضْعافَ ما حَدَّثوا في سَالِف الحِقَب[2]
ويُلبِسُ الدِّينَ غضّاً ثوبَ عزَّته   كأن أيامَ بدرٍ[3] عَنْه لَمْ تَغِب!
تدبير من قارعَ الأيام واختلطتْ   آراؤه في الوَغى بالسُّمْر والقُضُب
إنْ آبَ من غزْوةٍ أفنت أعاديه   كان الإيابُ لأخْرى أعظم النُّصب
سما إلى الشَّرف الأقصى بهمَّته   دين مربحٌ وعزْم دائمُ التَّعب

[31] وحين حلَّى تدلَّى فوق أندلس   وجارحُ الطَّيرِ لا يَنْفَكُّ عن كثبِ
مَلْكٌ إذا ما دعتْه الحرْبُ من بُعُد   طار النَّبيه أمام الجحفل اللَّجب
ما بين مخضرَّة الأقطار نازحة   وأخضرٍ في غِمار الرِّيح مضطرب
والجيشُ تختطف الأرواح رَاحتُه   من سابقٍ زبد أو عائم دَرِب
كتائبُ صفُّها والآلُ أرديةٌ   بيض فأشبهت الأسطارَ في الكُتُب
دانتْ جبالُ دِيار القيروان[4] فلم   يَغْنِ الأعنّةَ إلاَّ وهْي كالكُثُب
حتَّى أناخ بأمِّ الشرك مرضعة   أولادَها حلبا حمْأً على حلب
حسْناء يفتر للخطَّاب مبسمُها   عن جَوْهر السَّيف لا عن مبسمٍ شنب
منيعة من ذُرى سُورٍ تكنّفها   وزاخرٍ مُزْبدُ الأمواجِ من عصب
تغلْغلت في خِناق الجوّ صاعدةً   حتى حسبنا مدارَ النَّجم في صبب

---

(1) الطور: الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وقد ذكر بعض العلماء أنه الجبل المشرف على نابلس. ياقوت، معجم البلدان
(2) الأبيات التي تحمل رقم 2 زادها المقري على المراكشي. الخامس ص 130 من نفح الطيب
(3) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار - وهو ساحل البحر - ليلة، وبه كانت الوقعة المشهورة
(4) القيروان: المدينة العظيمة الشهيرة التي مُصِّرت في الإسلام على عهد معاوية بن أبي سفيان، الاستبصار ص 113-114

وحِينَ غادرَها طولُ الحِصار لَها   كأنَّها مركب أشفى على العَطب
ألقت إليك بأيْدي الذلّ طائعةً   ومكنتك من المسْلوب والسلب
مَار العُلوج وفي أعْناقِهِم مس   من عَفْو مقتدِرٍ للغَزْو منتدب
مَدُّوا الأكفَّ لِلَمْسِ النُّخم من فَرح   وشمَّروا لوُثوب النحْر من طَرب
حفَّتْ صقليةُ[1] جهْلاً فوقَرها[2]   خَوْقُ الحُسَام وطيشٌ في القَنا السلب!
وشيَّعتْ مُلكها للحرْب مُحْتفلا   لما دَعَتْ اختها بالوَيْل والحرب
وإنَّما بعثَت من جيْشها بقلا   ألقى بقائسَه في كفّ منتهب
صدرت بالعَرَب العَرباءِ وانقلبتْ   عن الحُسامِ (رِياحٌ) شرٌّ منقلب
فكان سيفُك نقاداً لَهُ بصرٌ   نفَى الزُّيوف وأبقَى خالصَ الذَّهب
[32] وردَّ رأسَ زيادٍ[3] مالهُ جسدٌ   من مَارِنٍ بالدَّم المَوَّار مختضِب
ألقتْه عن ظهرها جرداءُ جامحة   لو أنَّها مسحَت من خدِّه التُّرب[4]
جَلَّى إيابُك عنَّا كل مظلمةٍ   وأنَّس الدِّين من إيحاشِ مُغْترب
إن الجزيرَة مِنْ طُول انتظارِكمُ   لَها بكلِّ طريقٍ لحظُ مرتقب
صافِحْ بتلك اليدِ البيضاءِ قُنَّتها   فإنَّها أصبحتْ مسودَّة الطُّنُب
وامْنَحْ جزيل العطايا حَايِاً أبداً   على الحُماة حُنوَّ المُشْفِق الحدِب
يَا وافداً علقت من يُمْنٍ مقدمه   أيدِي الأماني بحَبْلٍ غَيْرِ مقتضب
وَدَانياً لعُلاه مسكِبٌ عَمَمٌ   يُراجِم النُّجْم في الآفاق والحُجُب

(1) صقلية: جزيرة تقع شرقي افريقيه يحيط بها البحر اليوني شرقاً والبحر التيريني شمالاً والبحر الصقلي أو المتوسط جنوباً وغرباً، عاصمتها بلرم. مارتنو ماريوموريتو، المسلمون في صقلية ص 1 - 2 - 3، امبيريو ريربطانو. مجلة المشرق (روما) عدد سبتمبر 1961

(2) وقّرها: بمعنى رزّنها وثقّلها، وهي تقابل (خفّت) بمعنى خف عقلها وخفت موازينها خرق السهام.

(3) لم نهتد للمعنى الذي يقصد إليه الشاعر، ولعله يشير لمقتل محرز بن زياد الفاوغي رئيس الاعراب بافريقية وأحد بني علي من بطون رياح، والمارن: الرمح الصلب اللدن... فيكون المعنى أن رمح الخليفة أطاح برأس هذا المتمرد

(4) أي أن مطية هذا المتمرد لفظت به عن ظهرها... ثم يمضي على سبيل التهكم: ويا ليت هذه المطية استطاعت أن تزيح التراب عن خد هذا المتمرد المعفر بالثرى(؟)»

جمُّ المَواهب للزوَّار مبتسمٌ   يستغرب النَّاسُ وقتاً فيهِ لمْ يهَب
ما بَيْن راحتِه الطُّولى وخاطِره   يفيضُ بحْرُ النَّدى بالعِلْمِ والأدب
كأنما بِشْرُه والجُودُ متَّصِلٌ   بَرقٌ تألَّقَ فوْقَ الرَّاكِب السَّرب
خليفةُ الله نادي العلم مبتسمٌ   عن جَوْهرٍ من بديع النَّظْم منتخب
قد أسْربت منه أثواب الصبا أرَجاً   لولاه عَرْفُ نَسِيم الرَّوْض لَمْ يطب
ألقتْ عُصَيُّ النَّوى أشياخُ قرطبة   في منبت العِزّ والحاجات والطُّلَب
أتتك تَشْكرُ ما أوليت من نِعَمٍ   وإنَّما أرَج النوار للسُّحب
تزداد نوراً إذا اسودَّ الزَّمان بِها   كأنها سُرُج في حَالك النُّوَبِ
والصَّبْر في كل خطب طَعْمُه صبِر   لكن عَواقبُه أحْلى من الضَّرَبِ
جَرَتْ معارِفكم في النَّاسِ كلهم   جَرْي الصِّقال عَلى الهِنْدِيَّة القُضُب
ودُمتم تأخذُ الأيامُ زينتَها   منكم وَترْفُل في أبرادِها القُشُب!

[33] وعند إكمال هذه القصيدة بالإنشاد، تهلَّل وجه أمير المؤمنين رضي الله عنه لها ولحسن أغراضها وهزَّته أريحية المعارف بما فيها من الأوصاف وتبلج فلق مجده عن هبة جزلة للقرشي الطليق، أبدت لقوله القبولَ وسفرت له عن وجه طليق.

وقام الشيخ أبو عبيد[1] الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي منشداً تالياً للقرشي المذكور في مجلس أمير المؤمنين رضي الله عنه بالحفل المذكور وقال: (طويل)

تَلالأ من نُور الخلافة بارِقُ   أضاءَتْ به الآفاقُ واللَّيلُ غاسِق
واشرقتِ الدُّنيا بِه فكأنَّها   بِن البِشر في كُلِّ الجِهاتِ مشارق
وهبَّ بريَّاهُ النَّسِيم فجئتُه   يخبّرنا أن الخليفة لاحِق

(1) كنّاه كلٌ من ابن عذاري وابن الخطيب أبا عبد الله ثم أورد الأول أربعة أبيات منها، بينما أورد الثاني البيتين الأولين. البيان المغرب ص 240 ـ أعمال الاعلام ص 306

إلى جبلٍ قد كان للفتح منزلاً   ولاذ به بالفتح موسى[1] وطارق[2]
سما بأمير المؤمنين إلى العلا   مخافةَ أن تسمو إليه العوائق
إذا أمّ أرضاً للنزول تضوّعت   منابتُها مسكاً لمن هو ناشِق
وإن طالتِ البيداءُ قصّر بعدَها   حديثُ الأماني والرجاء المرافقُ
تكادُ الربى تنحطُّ عند لقائِه   وتُسرع نهضاً للقاء الشواهِقُ
فلوْ شاء لم يركَب جواداً بجحفلٍ   ولا حملتْه في السفار الأيانِق
لـهُ شرفٌ يسمو به متحالُهُ   لذاك بعيداً وهو بالقرب لاصقُ
[34] مُجيبٌ لمن ناداهُ في يوم أزمَةٍ   رفيقٌ لمن قلّتْ لديه المرافق
جوادٌ إذا ضنّ الغمام بوبْلِه   وَصُولٌ إذا صدّ الصديق المُصادق
أزاحَ الرّدى عن مَنْ يلوذ بظلّه   وبثّ النّدى فاسترقتْه الخلائق
ففي ظله أمْنٌ مِنَ الخوف مانِعٌ   وفي كفه بحْرٌ من الجودِ رازق
له شيمة ترتاح للبذْلِ والنّدى   وكفٌ لِتفْليق الجماجمِ وامِق
تُقسّم أجسامَ العداة سيوفُه   ولُدْنٌ بأيدي الطاعنين بواسق
وخيلٌ تسوق الأسدَ فوق مُتونِها   وتسبق لمح البرْق والبرقُ خافق
تخيّرها التّوفيق من كل ضامرٍ   وأركبَها الأبطال سَعْد مُطابِق

(1) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء المكنى أبا عبد الرحمن فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية، ونشأ موسى في دمشق فخدم بني مروان ونبه شأنه ولما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ولّاه افريقية وما وراءها من المغرب سنة 88 فأقام في القيروان ووجه ابنه عبد الله ومروان فأخضعا له من بأطراف البلاد من البربر واستعمل مولاه طارق بن زياد الليثي على طنجة، ثم أمره بغزو شواطىء أوربة فزحف طارق واحتل سنة 92 جبل كالبي Calpe الذي سمي بعد ذلك جبل طارق.
الزركلي، الاعلام ـ الثامن ص 285 286.
(2) هو طارق بن زياد الليثي بالولاء أصله من البربر وقد أسلم على يد موسى بن نصير، ولما تم لموسى فتح طنجة ولى عليها طارقاً سنة 89 فلما كانت سنة 92 جهّز موسى جيشاً معظمه من البربر لغزو الأندلس وولى طارقاً قيادتهم فنزل البحر واستولى على الجبل وفتح حصن قرطاجنة وتغلغل في أرض الأندلس وحاربه الملك رودريك Rodrigo فقتله طارق وافتتح اشبيلية واستجة، وأرسل من استولى على قرطبة ومالقة، ثم احتل طليطلة (العاصمة) ... ثم فتح مدينة سرقسطة واحتل طرطوشة وبلنسية وشاطبة ودانية. الزركلي، الاعلام، مجلد ثالث ص 313 314.

رجالٌ ولكن في الحُروب ضراغِمٌ   وخيلٌ ولكن في السّباق شَوائِق
قدِ انتخبُوا من نخبة العُرْب كلّها   شبابٌ وخلْقٌ كامل وخلائِق
إذا عطشتْ في الحرب أفئدةُ العِدى   وَقد فرعوا للصّبر وهو مُفارِقُ
سقوْهم بعضْب السّيف عضباً كأنّما   لَهُ من عُروق المُرْهفات أمارق
وأسْمَرَ في كفيه أسْمَرُ نافذٌ   وأبيض في كفّيْه أبيضُ فالقُ

ومنها:

بسَعْدك يفري السّيفُ ما عزَّ قطْعه   وينفذُ حد السّهْم ما هُوَ راشق[1]
لـوْلاك لم يقْطَع حسامٌ لضَارِب   ولا فَتق الخطيُّ ما هُو فاتِق
ملكتَ قلوب النّاس حبّاً ورهبة   فدانَ لك الصِّنفان برٌّ وفاسِق
فَلا ذو يَدٍ إلّا لأمْرك ناصِرٌ   ولا ذُو فمٍ إلّا لِشُكرك ناطِقٌ
إذا هَمّ أمراً لم يلحْ بحقيقَةٍ   وعابَ دليلٌ للتفهُّم صادِق
[35] بدا من ضياء العَقْل هذي يدُلُّه   عَليْه ومن نور البَصيرة سَابِق
ومَن جَعَل التُّقوى سراجاً لقلْبه   أضاء ولم تُحجَبْ لديْه الحقائقُ

ومنها:

فطاف بأرض الكفْر حتّى أعادَها   إلى الحقّ وانقاد الأبيُّ المُشاقق
وكرَّ إلى نَصْرِ الجزيرة بَعْدَ ما   أتاهُ مَع الرُّكْبان تاعٍ وناعق
بجَيْشٍ تَضيق الأرْضُ عنْه بطُولها   وترْهبُه لوْ عاينتْه العَمالِق
وأبْيَض ورْديّ القَميص كأنّما   تفتّح فوْق النّصل منْهُ شقائِقُ
تُجرّدُه أيدي الأجِنّةَ في الوغى   وتُغْمدُه هامُ العِدى والمفارِقُ

ومنها

ولمـا أثار النّقع ليل عجاجه   وقد حجبتْ فيه العُيون الرّوامق
تطلع من قبسٍ ضياءٌ تلألأت   لمطلعه آفاقُها والمشارِقُ

(1) في ابن عذاري رائق ص 24